

فى بيان الصالحين المعاصرين الذين يعيشون فى مكة، والأعيان، والأشراف الذين سعدت بشرف اللقاء بهم

لقد سعدت بلقاء العديد من ساداتنا العظام ، وكان على رأس هؤلاء ركن الدين
حضرة شيخ الإسلام ، الوارث الوحيد للعلم النبوي ، وباعت الشرع القوي .. مفتى
عصره ، ومالك ناصية الدين .. وقد شرفت بصحبتهم ، وتشرفت بنيل خير
دعواتهم، ورجوتهم جميعاً الهمة ، وحسن النظر إلى العبد الفقير وخاصة بعد من الله
عليّ باتمام ما انتويته فى هذا المقام .

ولما كنت قد عزمت العزم ، ونويت التوجه إلى مصر ، ولما كنت موجوداً خلال
مراسم اجلاس الشريف بركات .. فقد تكرم على العبد الحقير إلى ربه بثلاثمائة سكة
لمصاريف الطريق ، وغلاماً حبشياً ، وهجيناً ، وبغجة من الملابس ، وكمية من
العنبر خام ، واستكتبى قائمة الأشياء التى قدمها إلي آفندينا ، وقائدنا صاحب
الضمير الوضاء حضرة صارى حسين باشا .. وكان بيانها كالتالى : إثنى عشر
جواداً عربياً أصيلاً ممن يسابقون الريح .. وفى أعناقها شجرة النسب الخاصة بها ..
التى تبين منشأها ، فبعضها مصرى ، وبعضها نجدى ، واحداها صعيدى ، واحداها
من نسل الطريقي .. الخ ومع كل واحد منها سائر من الطواشية الحبش ، وإثنى عشر
من الأحباش سبحان الخلاق .. وإثنى عشر طاووساً هجيناً ، ومع كل منهم مملوكاً
زنجياً ، من بلاد الفونج .. وجاء العبيد يحملون الهدايا المتعددة ، والمختلفة ؛ فمن
بُقسشات الأقمشة الفاخرة المختلفة النوع والمنشأ .. ومشغولات هندية لا مثيل ، ولا
نظير لها ، والجواهر ، والأحجار الكريمة المختلفة الأشكال والأنواع ، والياقوت ،
واللعل ، والزمرد ، والألماس .. والعقيق اليمنى النادر ، واللؤلؤ والمرجان .. والهدايا
الهندية المختلفة الأنواع والأشكال ، والشيلان الكشميرية ، وكميات من العود ،
والعنبر والمسك الخام .. وكميات من الليمون التى كل واحدة منها فى الشفاء من
كل داء . والمسك الحيوانى ، وحمل جملين من الوز ، والبط العراقي . وغير ذلك
الكثير والكثير .

وفي مقابل ذلك قام سعادة الباشا بتسليم كتبخدا الشريف مجموعة من الزمريات التي لم نر لها مثيلاً .. وقال للمعتمد ، وهو يتسلم منه هذه الهدايا ؛ إننا لسنا فى حاجة إلى أمتعة ، ومتاع الشريف بل نحن فى حاجة إلى خدمات حضرته .. ونريد منه الاستقامة فى القصر .. ولما كنت أنا ممثل السلطان .. فالمطلوب منه أن يُرسل إليّ على الفور مفاتيح الكعبة الشريفة .. وإلا فنحن لسنا فى حاجة إلى متاعه ، أو هداياه .. وما أن وصل معتمد الشريف ، ووكيله واسمعه ما سمع ، ونقل إليه ما دار ، وما رأى ... حتى قال الشريف (الأمر أمركم) وعلى الفور قام بوضع مفاتيح البيت الحرام المجرى فى ظرف من السندس والحريير الأخضر .. وقام بتسليمه لتوصيله إلى حضرة الباشا فوراً . فقام الباشا بالباس كتبخدا الشريف ، وقائد البولكات السبعة المصرية ، الخلع القيّم . وأحسن على الشريف بمعطف من فراء السمور الفاخر .. وقبل الهدايا التى بعث بها الشريف . فقام المنادون على الفور بإعلان جلوس الشريف ، وتسليمه مفاتيح الكعبة المشرفة لتسلم إلى السلطان ... وبعدها شرع جناب الباشا فى التحرك ناحية المدينة المنورة . وقد أحسن بدوره على العبد الحقيير بالكثير من الهدايا التى وصلته .. وقد قمت أنا بدورى باحضار العطايا ، والهدايا الكثيرة التى وصلت إلىّ من الآشرف ، والآعيان مع بقية حاجياتى إلىّ جده وتوجهت إلى زيارة حضرة أمنا حواء .

* * *

اوصاف منازل ومراحل بندر جدّه :

أولاً ؛ أركبنا أربعة من الغلمان على البغال الهجين التى آهدها إلىّ حضرة الشريف مع الهدايا .. وسرنا إلى خارج مدينة مكة المكرمة .. ولم نسترح إلا فى مسجد الشيخ محمود ذى القبة الواحدة .. فى خارج مدينة مكة . ويقع هذا المسجد فى الناحية الجنوبية لمدينة مكة .. قبة المسجد ليست مرتفعة .. وحوله ما يقرب من مائتي منزل فقير وبعض المساجد ، وبساتين النخيل الأخرى . عبرنا هذه المرحلة واتجهنا ناحية الجنوب ، واستمر سيدنا .. وبحثنا عن مكان للإستراحة فيما بين المقاهي الواقعة على الطريق الرئيسي .. ووقفنا فى إحداها .. وجميعها يوجد فيها

مطريات ، وغوازي من الفتيات الحبشيات . استرحنا في احداها ، وفي الساعة السادسة تحركنا ناحية وادي جده .. حيث :

* * *

مزار أهل سيدنا آدم بني البشر حضرة حواء الكريمة ،

هناك قبة شريفة صغيرة على المكان الذي ترقد فيه أمنا ، وأصلنا السيدة حواء أم بني البشر جميعاً .. ومع أن المكان رملي في وسط الصحراء ، إلا أنه مفرح بالرغم من أنه بسيط وغير مزين .. والقبر مغطى بالحريز الأطلس الأخضر .. وخارج الضريح وحوله مغطى بالحصى ناحية رأسها الشريفة ، وكذا ناحية قدميها المباركتين .. وكانت حرم ملك أحمد باشا المرحومه قره سلطان قد قررت أن تمد المياه العذبة حتى جده ، وتعهدت بذلك ، وأن تتعهد مقام حضرة أمنا حواء بالرعاية .. ولكن شاءت الأقدار أن يتوفاها الله ، وهي تضع مولودها . وترتب على هذا عدم تنفيذ هذه الخيرات .

ويقال أن مكان أمنا حواء في سرنديل بالهند .. ولكن هذا قول ضعيف ، وهناك من يقول أن هبوط آدم عليه السلام هو الذي كان في سرنديل .. ودموع عينيه بنت الزنجبيل ، والفلفل ، والقرانفيل .. وبعد ذلك تمكنت عصفورة الجنة أن تنقل الأخبار بين آدم وحواء .. حتى تم بينهما اللقاء ، والتعارف عند جبل عرفات .. ومن هذا المنطلق يسمون هذا الجبل حتى اليوم « جبل عرفه » ، وذلك لأن حضرة أمنا حواء قد هبطت إلى الأرض في جده .. وقد سكن آدم وحواء زمناً طويلاً في وادي مكة .. وأنزل لهم جناب الحق سبحانه وتعالى البيت المعمور لهم من الجنة ، تحت يطوفان حوله كنوع من أنواع مناسك العبادة . وكانا يصعدان إلى عرفات . وحسب قول المؤرخ إسحاق ؛ فإن حضرة سيدنا آدم قد عمّر طويلاً ، ثم وفاه الأجل المحتوم في عرفات .. ودفن في المكان المسمى « مطبخ آدم » . وأنه لم يهبط في سرنديل . بل أكثر الأقوال قبولاً أن سيدنا آدم وسيدتنا حواء عاشا زمناً طويلاً في وادي مكة ، وأن الحق قد أنزل لهما بيتاً من الجنة ، ولكنه من أديم الأرض .. وكان يتعبدان فيه .. ولما كانت مكة منطقة صخرية فإن الخالق سبحانه وتعالى قد أوحى إلى آدم أن يذهب إلى

صحراء حوران بالقرب من الشام ، وأنه قام بأعمال الزراعة هنالك . وتناسلا هنالك . وكاننا كل سنة يأتيان إلى البيت المعمور ، ويطوفان حوله ؛ ويصعدان إلى عرفات . والمؤرخ إسحاق يعتقد بعدم نزول سيدنا آدم في سرنديل بالهند .. وأن سيدنا آدم عمّر طويلاً بعد أمنا حواء . في حين هناك أقوال تقول أن أمنا حواء هي التي عمّرت طويلاً بعد سيدنا آدم . وآن أمنا حواء هي التي دفنت هابيل وقابيل والنبي شيت بالقرب من جده و « لا يعلم الغيب إلا الله » وفي رواية أخرى أن سيدنا نوح ، قبل الطوفان بسنة واحدة قد أخرج جسد سيدنا آدم من عرفات ، وجسد أمنا حواء من جده وقام عليه السلام بدفنهما من جديد في القدس الشريف . والعهدة على الراوى . وحسبما تذكر كتب تاريخ العالم أن سيدنا آدم كان يُرزق دائماً بتوئم ، وأصبحت ذريته أربعين ألفاً .. وجزت قدرة الله أن يكون أحدهما ولد والأخرى فتاة ، وكان يزوج الفتيات بمن سبقها من الذكور . ولهذا قام هابيل بقتل قابيل .. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُسال فيها الدماء على سطح الأرض .. وأن العاصي هو قابيل لأنه عصى أمر ربه ، ولم يُطعه .. ومنذ هبوط آدم مرت سبع آلاف وثلاثون سنة (رحمة الله عليهم أجمعين) فقد قُمننا بزيارة أمنا حواء .. وتوجهنا إلى الناحية الجنوبية ، وشاهدنا المقاهى العامرة، وتفرجنا عليها .. وهي موجودة على الجانبين .

* * *

أوصاف بندر مدينة جده وقلعتها القديمة :

هي من مآثر ومباني سلطان مصر السلطان الغورى تُعتبر ميناء الهند ، واليمن ، وعدن ، والبصرة ، ولحا ، والحبش ، والسويس يأتيها سنوياً ألف قطعة من سفن الجلبه Gelebe البولطة Polta ، والقارقه Karka ، والغليون Galyon ، ويأخذ عنها جمارك ، تقع دائرة الجمرك على شاطئ البحر ويسمونه خورده . ويتعاون في تحصيل الرسوم الجمركية آعاً من طرف الباشا وشريف من قبل حضرة الشريف . يأخذ نصف الحاصلات قائد جده ، والنصف يُخصص لحضرة الشريف . ومنذ أن فتح سنان باشا اليمن وقد تقرر أن يتدخل الأشراف في شعورون البندر ، وأصبح ذلك في حكم القانون . وبالعدل ، ووجه الحق حاصلاتها السنوية تُقدر بألف وخمسمائة كيسه ؛

لإنه ميناء عظيم . والقلعة على شفة القلزم محيطها دائراً ما دار ألفين خطوة شداد ؛ بناء متين ، ثرية البنيان وعلى الطرف الجنوبي لهذه القلعة ، وعلى شاطئ بحر القلزم أيضاً ، قلعة داخلية ؛ وهي متصلة بالقلعة الكبيرة الرئيسية . محيطها الدائري ستمائة خطوة . وهي أيضاً من المباني الصخرية . وقائد جده ، وجميع جنوده يسكنون فى هذه القلعة الداخلية . بابها مكشوف على ناحية قلعة اليمن . كما أن لها باب مطل على ناحية الشرق . ولها بوابتان كبيرتان .. باب كل منهما مكون من ضلفتين . إحداهما بوابة مكة ، وتطل على البحر ، قائدها من قباطنة مصر ، يحمل طوغاً ، أو طوغين معه ثلاثمائة رجل من رجال البحرية . وهي قضاء مخصصاته مائة وخمسين آقجة ، ويحصل قاضيها على ألفين قرشاً سنوياً . ولكن يُنعم ، ويُحسن على مشايخ مكة بما يُعتبر علوفه ، ومحكمتها وسط القلعة ، بها ثلاثمائة دكاناً ما بين صغير وكبير . لها خان كبير على شاطئ البحر وكأنه قلعة منيفة . من مآثر بقلاچى محمد بك المعمارية . يمد القلعة بالكثير . تحته الكثير من المخازن ، والعنابر ، والدكاكين .. وعدها هناك سبعة خانات أخرى ، وكلها مملوءة بالآشياء ذات القيمة . ولكن ليس بها حمامات ، أو عمائر خيرية ، أو مدارس . فالجميع يذهب إلى البحر ويغتسل فيه . تعتمد على مياه الرحمة = المطر ، لذا فمياهها قليلة . بها جامعين كبيرين ، جماعتهما غفيرة ؛ أحدهما قريب من الجمارك وعلى شاطئ البحر ، وهو جامع من الطراز القديم ، ذو منارة واحدة . يتقاضى المؤذنون ، والأئمة مخصصاتهم من الجمارك . والجامع الآخر فى الضواحي وهذا الجامع هو المفيد المختصر أو المختصر المفيد .. وعدا هذين الجامعين فالباقي كلها مساجد .. ويُقال آن مياهها كانت جارية فى الأزمنة السابقة . وكانت حينذاك عامرة ، ذات حدائق غناء ، وكأنها باغ إرم . وبعد ذلك تخربت مجارى المياه نتيجة منازعات الآشراف ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى حتى لا يُمكنوا الروم = الأتراك ، من التوطن بها ، والتغلب عليها وهناك حي يسمى « جده » تنساب فيه مياه ثلاث سواقي فتكفيه . والغريب فيها ما أن تجرى على ترابها المياه حتى تغيب . ومن الممكن تسيير المياه فى جده بجهد يسير .. ولو تم ذلك لكانت جده بندراً للفرجة ، والمشاهدة . وقد قمنا نحن أيضاً بالفرجة ، والسير والمشاهدة .

ولما كانت أمتعتنا المرسله من مكة المكرمة قد وصلت ، فقمنا بوضعها فى سفينة
الرئيس = القبطان فنجانجى رئيس ووضعت عشرة أجولة من البن فى فرقاطه القبطان
حسن رئيس وخمسة أجولة فى مركب النائب مع اثنين من الطواشيه وواحد من
ماليكنا .. وبعد أن وضعنا باقى الأمتعة فى السفن .. توكلنا على الله وودعت آخى
فى الرضاة جليبي ، وحاكم جده بقلاجى محمد بك ؛ وتوجهت عائداً إلى مكة
المكرمة مع ثلاثة من الغلمان .. وطوال الطريق وأنا أترنم بتلاوة القرآن العظيم .. وبعد
ثمان ساعات متصله ، وصلنا إلى مكة المكرمة .

فى ذلك اليوم كان الحجاج مستعدون للإتجاه لزيارة المسجد النبوي الشريف ،
والسلام على رسول الله ، ﷺ . وقمت أنا العبد الحقير بدورى ، واستأذنت من
أفندينا حسين باشا فى مرافقة حجاج مصر .. فأحسن إلي بمائة فيلورى ، وسبع
جمال ، وسلمنى خطابات إلى وزير مصر كتحدا ابراهيم باشا . وقام بالتنبيه ،
والتأكيد على كل من اوزبك بك وقائد الانكشارية اراهيم آغا القيصري ، وجاوش
الشريف ، وكتخدا الآعتاب السنيه برونسز أحمد آغا بضرورة توصيلى إلى الهاشا
المشار إليه ، فتشرفت بتقبيل آياديه الكريمة ، ونُلت دعواته الخيرة ، وودعته . وتلوت
هذا الدعاء الطيب :

(اللهم لا تجعله آخر العهد ببيتك الحرام ، وإن جعلته فعوضنى عنه الجنة يا أرحم
الراحمين) . وأتممت طواف الوداع على النحو السابق سبعاً .. وشربت من ماء زمزم
مودعاً ، وتراجعت مردداً الوداع ، الوداع يا بيت الله الوداع .. وخرجت من الصفا ..
وسعيت بين الصفا ، والمروة على النسق السابق سبعاً كسعوي وداع . وعلى هذا
المنوال تمت سياحة العبد الحقير إلى بيت الله الحرام سنة الف واثنين وثمانين من الهجرة
النبوية .. وبها أسقطت فريضة الحج التى تُمثل ركناً من أركان الإسلام . وأتممت
نسك طواف الزيارة ... ولقد حرصت كل الحرص على أن أسجل مناسك الحج المتفق
عليها من كل الأئمة .. وراعت التيسير .. والتركييز على ما فرض الله ورسوله ..
وتمنيت على الله أن يكون ذلك صحيحاً .. والله ورسوله أعلم . وزدت على ذلك
تطوعاً ، من حبي وشوقى .. ودعوت للوالدين ، ولمشايخنا ، واساتذتنا .. ولكل
ذوى القربى والأحبة .. ولكل من سألنا الدعاء ...

وإلى أن تتحرك قافلة العودة ، كنت يومياً أطوف وأسعى بين الصفا والمروة إثني عشر مرة ، واعتمرت ثلاث مرات يومياً .. وكنت أطوف كل ليلة ثلاث مرات ، وبشرط أن يكون كل طواف سبعاً . وفي كل ليلة كنت أقوم - وخدامى - بالعمرة ليلاً . وهذا من فضل ربي . والسلام .

هذا .. وفي اليوم السادس والعشرين من ذى الحجة سنة الف واثنين وثمانين ، رافقت الألفي جندي الذين عادوا إلى مصر ، وقد قدم منها ثلاثة آلاف .. بقي منهم ألف للحفاظ على الأمن والهدوء في مكة .. وفي مساء اليوم التالي ، يعنى مساء يوم السابع والعشرين تحركت قافلة الحج المصري المكونة من أربعين حاجاً مصرياً من مكة المكرمة متجهة إلى المدينة المنورة .. وبنية العمرة .. والزيارة إمتطينا سهوة جياذنا الفتية ، وآيدنا تلوح بالوداع إلى بعض الأحبة ، وقلوبنا تهفوا إلي السلام علي الحبيب المصطفى
